رة أفريقيا أرض «الألماس الأسود»

معقلا للاتجار بالبشر في أفريقيا، حيث «الخيرات» كثيرة بالنسبة إلى وكلاء لاعبين باعوا ضمائرهم من أجل حفنة من الأموال لاصطياد فتيان يافعين موهوبين، تحديداً في القرى الفقيرة التي تعب أهلها من الجوع وباتوا يبحثون عن أي وسيلة لملء أمعائهم الخاوية. إلا أن الحكاية لا تنتهي هنا، إذ ثمة من الفتيان من يسلك طريقه بعد معاناة نحو هذا الفريق أو ذاك، لكن كثيرين تضيع أحلامهم في شوارع أوروبا الباردة حيث لا مأوى ولا مأكل ولا مصير في النهاية إلا بين يدي الشرطة والعودة القاسية إلى الوطن والأهل. هنا القصص محزنة والمأساة لا تكسر أحلام الفتى وحده، بل تصيب آمال الأهل في الصميم

جشع وكلاء وأندية ومأساة وقوانين بالية

700 الف لاعب كرة قدم ناشىء من عشرات الدول الافريقية يتم تجربتهم في قطر سنويا

حسين وهبي

الحكاية بدأت عندما وقف لاعب المنتخب البلجيكي السابق جان مارك بوسمان عام 1995 أمام محكمة العدل الأوروبية، مطالباً بحرية الانتقال إلى دونكيرك الفرنسي بعد انتهاء عقده مع ستاندار لياج البلجيكي. ما كان يطلبه بوسمان حينها من المحكمة كان إبطال القانون الصادر عام 1885، الذي كان يجعل من اللاعبين رهينة للأندية مدى الحياة حتى بعد انتهاء عقودهم. حصل بوسمان على الحكم واعتمدت المحكمة حينها على حق اللاعب بحرية الانتقال من نادٍ إلى آخر بعد انتهاء عقده بحسب «قانون بوسمان».

ما حققه بوسمان وقتذاك عُدّ انتصاراً لحقوق اللاعبين في لعبة كرة القدم، لكن هذا الانتصار الجزئي فتح الباب على الاتجار بالبشر في العصر الحديث للرياضة، إذ إن «قانون بوسمان» رفع أسعار اللاعبين بنحو جنوني، حيث باتت الأندية تسعى إلى بيع لاعبيها قبل انتهاء عقدهم، وذلك لكي لا تخسر الجزء الذي تحصل عليه من قيمة الصفقة الشرائية.

هذه الوضعية المعقّدة جعلت الفرق تبحث عن موارد بشرية أقل كلفة، فكانت وجهتها الأولى القارة السمراء، وتحديداً أولئك الذين لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من العمر، لتبدأ مرحلة الاتجار بالبشر، وخصوصاً الأطفال، تحت غطاء كرة القدم. وهنا يمكن الحديث عن التجار الفعليين، إذ في الوقت الذي يحصل فيه عملاء اللاعبين المحترفين على ما نسبته نحو 28% من عمليات البيع والشراء الإجمالية سنوياً، ويُسهمون في الارتفاع المطّرد لأسعار اللاعبين، يعمل قسمٌ آخر من العملاء حصرياً في القارة السمراء مُستخدماً بطاقة تعريف مهنة مزورة، ومدّعياً تمثيل الأندية الكبيرة، ويوهم لاعبي الكرة بأنّه قادرٌ على تحقيق حلمهم الدائم بأن يصبحوا كاللاعبين الكبار الذين سبقوهم إلى درب النجومية في «القارة العجوز».

كل هذا مقابل مبالغ مالية عانى هؤلاء الشبان وعائلاتهم لتحصيلها، إذ إن مبلغ 3000 يورو مثلاً التي يأخذها الوكلاء لإيجاد فرص للاعبين، هي قد تكفي عائلة لمدة سنة كاملة في أحد البلدان الأفريقية. دفع المبلغ يعدّ بمثابة بطاقة العبور إلى أوروبا، لكن هذا الأمر دونه صعوبات، إذ إن الطائرة ليست دائماً وسيلة النقل المتعارف عليها في صفقات من هذا النوع، لأن البعض يخاطر بحياته فيعبر الصحراء وصولاً إلى المغرب مثلاً حيث يستقلون قارباً عبر البحر إلى فرنسا والتي تعد أكثر الوجهات استقبالاً لهم، وذلك مع ما يواجهونه من مخاطر قد تصل إلى الموت غرقاً.

وإذ يبلغ عدد اللاعبين الذين ينقلون إلى أوروبا سنوياً نحو 4000 لاعب، فإن المصائب التي تحل بهؤلاء وراءها وكلاء لا يردعهم أحد، إذ رغم قانون الاتحاد الدولي لكرة القدم الذي أرسى قوانين حاسمة بخصوص اللاعبين الذين لم يبلغوا سن الرشد، فإن المخالفات مستمرة، لأن كلفة إحضار لاعب من أفريقيا في سنّ السادسة عشرة متدنية جداً، وهو بطبيعة الحال «سلعة مربحة» في حال تطوُّر مستواه مع بلوغه الثامنة عشرة، بينما تدني مستواه يرميه بعيداً من الفريق ويتركه في الشارع من دون رعاية، لأنه ليس هناك قانون أو عقد يلزم النادي به، وخصوصاً في مرحلة التجربة.

الاتجار الكروي بالبشر في أفريقيا عائدٌ بالدرجة الأولى إلى جشع الأندية الأوروبية مالياً وعدم وجود قوانين تحمي اللاعبين، إضافة إلى غياب التنظيم العام لكرة القدم في القارة السمراء. وهذا ما رفع عدد لاعبي كرة القدم المشردين في شوارع أوروبا في عام 2010 إلى 20 ألف لاعب، إذ إن بعضهم لا يعودون إلى بلادهم حتى لأسباب تتعلق بالعار وتحميل أنفسهم سبب الفشل وتخييب آمال عائلته التي قدمت كل التضحيات إليه في سبيل تحقيق حلمه.

> **20 ألفاً هو عدد اللاعبين المشردين في أوروبا**

تبدو القوانين التي سنّها «الفيفا» وقوانين الأمم المتحدة غير قادرة على السيطرة على هذه الآفة في كرة القدم، إذ يُعَد قانون اللعب المالي النظيف المتعلق بالصرف المادي السنوي، الذي يجبر الأندية على التخلي عن لاعبين لقاء شراء لاعبين جدد للمحافظة على سقف صرف محدد، عاملاً إضافياً اليوم يُسهم بازدياد بحث الأندية عن لاعبين أقل كلفة من دون توفير الحماية لهم. وإذا كان العملاء يتاجرون باللاعبين الأطفال بنحو شخصي، فإن الخطر يمكن أن يتحول إلى عمل مؤسساتي منظم. وهذه المسألة أشار إليها وثائقي بعنوان «الألماس الأسود» للمخرج باسكال لامانش الذي كشف أنّ في أكاديمية أسباير للتفوق الرياضي التي شيّدت عام 2005 في قطر، تجري تجارب لـ 700 ألف لاعب كرة قدم ناشئ من عشرات الدول الأفريقية سنوياً. ويظهر عمل الأكاديمية، المسيطر عليها من قبل شخصيات كروية معروفة قطرية وأوروبية ترتبط بأندية كبيرة، على أنه عمل لتطوير اللعبة وتطوير لاعبين موهوبين، إلا أنه يحمل في طياته البحث عن مواهب أفريقية ونجوم جُدد يؤمّنون عائدات ضخمة في فترة لاحقة، وهذا ما يجعل من الشركة مصنعاً للبضائع البشرية، أي اللاعبين. وباتت إحدى الطرق التي تتبعها هذه الأكاديمية هي البرامج التلفزيونية، وفي إحداها يفوز لاعب ما ويبلغ وحده العالمية مقابل دفع الأندية مبلغاً مالياً ليس بقليل للشركة المنظمة للمسابقة، بالتعاون مع العملاء في الدول الأفريقية (خصوصاً غانا وساحل العاج) لإتمام هذا البرنامج الذي ترى فيه فوائد كثيرة. وإذ يُظهر الإعلام أن هناك فائزاً بلغ حلمه، يوضح التدقيق جيداً أن هناك العشرات بل المئات الذين تظهر الدمعة في عيونهم، وهم ينتظرون دورهم أو لفتةً من عميل هنا أو مدرب هناك يعيد لهم الحياة التي فقدوها بعُد مغادرتهم لأفريقيا.

هو أحد هؤلاء، حيث يشرح بأنه عند وصوله إلى بلجيكا، وهو في السابعة عشرة، أقام في منزل الوكيل، لكنه كان يدفع ثمن تنقلاته بالقطار ليقصد الأندية من أجل الخضوع لاختبارات فيها، حتى أنه عند توقيعه مع فريق بيفيرين، فإنه لم يحصل على أي فرنك بلجيكي، مضيفاً: «هنا في أوروبا، كل اللاعبين الأفارقة لهم حكايات. بمجرد وصولنا إلى هنا، نقبّل أيادي كثيرة».

كلام أوغاري يتطابق مع كلام اللاعب الكاميروني ألويس نونغ، الذي احترف في بلجيكا أيضاً، والذي يشير إلى أن الوكلاء مستعدون لفعل أي شيء وحتى التخلي عن إنسانيتهم من أجل تحصيل النقود على حساب الفتيان الأفارقة، ويضيف: «في معظم الأحيان الفتيان يصلون إلى أوروبا بتأشيرات سياحية لمدة أسبوعين. وفي حال فشل التجارب فإن صلاحية التأشيرة تنتهي ويتركون لمصيرهم ولا يرون الوكلاء مجدداً». لكن أكثر ما يؤلم نونغ هو أن هؤلاء الفتيان ينتقلون في الشتاء من بلادهم التي تبلغ الحرارة فيها 35 درجة مئوية على الأقل إلى بلدان شديدة البرودة.

نونغ نفسه عاش تجربة مشابهة عند قدومه إلى فرنسا عندما كان في السادسة عشرة مع 6 فتيان كاميرونيين، حيث قضى عامين بطريقة غير شرعية، إلا أن الحظ أسعفه، إذ تمكن من الانتقال إلى فريق في بلجيكا، لكنّ زملاءه الباقين انتهى بهم الحلم الأوروبي الكبير في مطاعم أو ورشات بناء.

هذه المأساة شغلت كثيرين في أوروبا وأفريقيا، ومن بينهم رافايل بولي، وهو باحث في المركز الدولي للدراسات الرياضية في جامعة نيوشاتيل السويسرية، ومختص في الهجرة الدولية للاعبين، حيث يشرح بأن الفتيان بعد اصطدامهم بالفشل في أوروبا فإنهم يحارون بين البقاء فيها بطرق غير شرعية أو العودة إلى بلدانهم، لافتاً إلى أن العودة «تعدّ مرادفاً للعار بالنسبة إلى الأهل الذين يعتقدون أن التوقيع مع فريق في أوروبا سهل ووحده الفتى هو من يتحمل مسؤولية الإخفاق. وهذا ما يدفع هؤلاء إلى الهرب».

بين أفريقيا وأوروبا إذاً قصص محزنة تُدمي القلوب لفتيان كان همّهم الأول أن يخرجوا من بؤسهم ويوفّروا حياة كريمة لأسرهم، فإذا بهم يواجهون أقسى العذاب في رحلتهم إلى «القارة العجوز». ليس دائماً كرة القدم تُدخل الفرح إلى القلوب، إذ ثمة في أرض فقيرة، هذه الساحرة المستديرة أبكت كثيراً من العيون.